مراجعة كتاب

جراحات الرجل الكبير في عالم صغير

إحسان عباس في «غربة الراعي»(*)

ابراهيم نصرالله

ما الذي يمكن أن يُكتبَ عن كتاب **غربة الراعي** حين يكون الكتاب سيرة حياة؟ فالحكاية هنا من لحم ودم وحلم، لا يمكننا أن نقول فيها إلاّ ما تقوله في نفسها، بحيث يبدو أي اقتراب منها عبر الكتابة فيه جَرحاً لخالص شفافيتها وهي تعيد بناءَ العالم الذي كان، مؤرقة بعذاب معرفتها أنها لا تستطيع الوصول به الآن إلى ما سوف يكون.

تنفتح **غربة الراعي**، سيرة الدكتور إحسان عبّاس، على مشهد روائي عذب، يحيط بالطفولة. ويتبعها في مسيرتها نحو رموزها الأولى، وهي تتأمّل العالم في تشكلاته المحيرة، التي تفضي بعد سبعين عاماً إلى حكمتها وهي تُستعاد، دون أن تنتزع نفسها تماماً من حسّها الأوّل ورؤاها، حيث يقف الطفل هناك وحيداً، لا يملك من الدنيا غير عينين مشرعتين تجمعان الغيم وتنشرانه وتشكلانه من جديد.

يبتعد «الراعي» هنا قليلاً وهو يسرد حكاية الطفل الذي كان، وكأنّ استحضاره في صيغة «الغائب» محاولة لإعطاء ذلك الطفل حرية أخيرة ليرى نفسه بعيداً عن النتائج، بعيداً عن أسى الحصاد. وكأنّ ذلك الاستحضار محاولة لوضع حاجز يضمن أن تبقى الطفولة طفولة كاملة، لا تُخدش بالغربة. وكأنّ في ذلك الاستحضار أيضاً محاولة جريئة للاعتراف بأنّ كلّ ما هو خارج

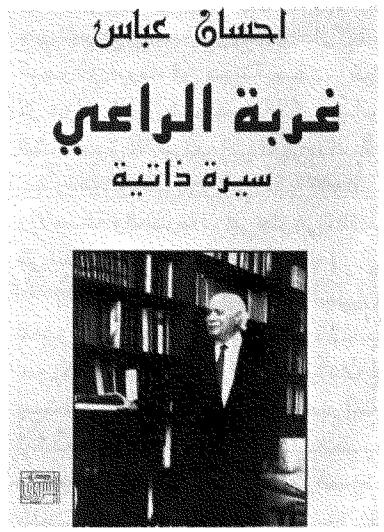

تلك السنوات هو شيء آخر.

تتفتّح السيرة على إيقاع روائي، له بنيته وشخوصه، وتفاصيل أماكنه الدقيقة، وفضاءات أحداثه، واكتماله الدائري، الذي يظهر فيه واضحاً ذلك الربط المتقن بين رموز البدايات وما تلاها وهي تتشكّل في عيني الطفل الأوّل، والواقع الحياتي وهو يشكّل رموزه الموازية.

يعترف «الراعي» بأنّه لم يدوّن مذكرات تعينه في كتابة سيرته الذاتية. وربما كان في عدم التدوين هذا، سرّ ذلك البناء الروائي في سيرته، وذلك الدفق الوجداني، والإحساس بمجمل التجربة وشفافية الظروف والأحداث وقسوتها... بحيث خرجت هذه الأحداث من القيد الصارم الذي يُلزم كاتب السيرة عادة بدقائق الواقعة، إلى فضاء أكثر اتّساعاً، لأنّها لا تستعاد في ضوء الراهن الذي أحاط بها، بل في ضوء التجربة التي تملك القدرة الكاملة على الارتفاع بمعناها.

هكذا، تلامس **غربة الراعي** البنية الروائية وتتقاطع معها، لا من حيث الشكل وحده، بل من حيث المعنى أيضاً وهذا هو الأهم. وإذا كان ثمّة شيء نتطلّع إليه في سيرة «الأستاذ» فهو هذا المعنى، وقد منحنا إيّاه، دون أن يجعلنا نحسّ لحظةً واحدةً، أنّ هذا المعنى قادم من خارج الحياة التي عاشها. وهنا ترتفع السيرة، وتتحوّل تدريجياً بين يدينا: من سيرة إنسان إلى سيرة الإنسان.

لقد قدم «أسلوبُ الحكاية الممتدة» الذي اختاره صاحب السيرة ليكتب سيرته، تلك الكثافة الواضحة الموحية، القادرة على استخلاص رحيق التجربة الطويلة، دون أن يتركنا معلّقين في الهواء لحظة. وأتاح له هذا الأسلوبُ أن يقبض على المعنى الفنّي لفكرةالزمن الإبداعي، بما يجاور الرواية ويندمج فيها، ويخرج من الحكاية إلى حكمتها. ولعلّ أوّل ما يتبادر إلى ذهن القارئ هو السؤال التالي: ما الطريقة التي سيكتب فيها صاحب السيرة سيرته، وهو صاحب ذلك الكتاب الجميل **فنّ السيرة؟**

(*) إحسان عبّاس: **غربة الرّاعي** (عمّان: دار الشروق، ١٩٩٦).

وفي ظنّي هنا، أنّ الكتاب [المقصود: **غربة الرّاعي**] تمرّد على الكاتب هنا، بحيث تجاوز القواعد على أهميتها ووصل إلى درجة الإبداع بما يعنيه الإبداع من تجاوز.

***

وإذا كان الطفل الذي يستحضره الدكتور إحسان في مطلع سيرته بصيغة الغائب، ولا يستردّه ثانية، لأنّه لا يُستردّ... فإنّ استحضاره لصورة مريم، تلك الفتاة التي تمرّدت في زمن كان التمرّد فيه جريمة، في مواقع ثلاثة، يجعل من مريم أهمّ أعمدة هذه السيرة. وفي ظنّي أنّ أيّ قراءة تُقصي مريم من هذه السيرة لن تستطيع الوصول إلى المعنى الإنساني الحقيقي لتجربة «الراعي».

فمريم تصبح هدفاً سرياً للطفل إحسان عبّاس وهو يتوجّه إلى حيفا للدراسة، إذ يحمل لها كلّ ما تحمله القرية من قيم مدمّرة قاسية، لا لشيء إلاّ لأنّها تجرّأت وأحبّت فعانت نتائج هذا الحبّ، واختفت، فيما بعد، لتصبح طريدة لأولئك الذين لا يتنازلون عن رجولتهم حين يكون الأمر متعلّقاً «بغسل العار»! مريم هذه، التي يُعبأ الطفل بالحقد عليها، ويزين له الواقعُ الاجتماعي المتخلّف قتلها، كي ينتمي إلى عالم الرجولة، أو يُسمح له بالانتماء إليه... أقول: مريم هذه تسكن الطفلَ من أوّل سطر تطلّ عبر كلماته في هذه السيرة، إلى آخر سطر. وأستطيع القول إنّ مريم في غيابها حاضرة في كلّ كلمة من كلمات هذه السيرة، وحاضرة في فضاءاتها. وإذا كانت السيرة تشكّل ثانية الماضي الذي كان، فإنّ مريم هي الحلم المضمر على الصعيد الإنساني لما كان يمكن أن يكون. وبالقدر الذي يتحرّك فيه «حضور» صاحب السيرة، فإنّ «غيابها» الحاضر فيه لا يكفّ عن كتابة ذاته عبر ذلك التوق العارم للتحليق الذي يسكن أجنحته المقيّدة.

***

وإلى جانب مريم، يتحرّك عدد كبير من أبطال هذه السيرة، وبعضهم يتمتع تماماً بمواصفات البطل الروائي أو الشخصية الروائية: الوالد، الجدّة،

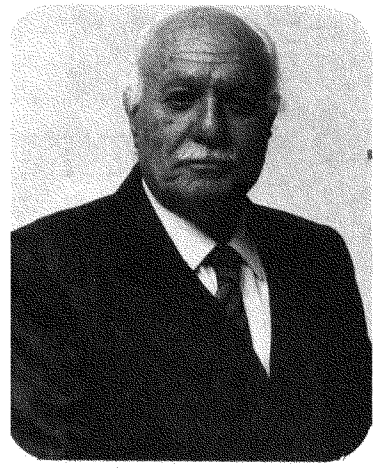

احسان عباس

مختار القرية القتيل، نوار، ملكة جمال حي المسلمين «قمر»، وملكة جمال الحي اليهودي «يونا» في مدينة صفد. وقبل كلّ هؤلاء تبرز شخصية بكر عبّاس الشقيق القريب إلى الروح، كأنّه عمودها، لتلعب دوراً في غاية الأهمية والأصالة والعذوبة، وهي «ترعى» القلب في انقلابات الزمان وحلكة أحواله.

وفي ظلّ حماس صاحب السيرة للصراحة الكليّة في كتابة السيرة الذاتية حين كان شاباً، واعترافه أخيراً بأنّه لا يستطيع تحمّل مسؤولية تلك الصراحة، تتقدّم صورة «بكر» لتكون الشخصية الأهمّ التي يعايشها في ظلّ نظرته «للصراحة» واعترافه الذي يقول لنا الكثير وخاصة في مجال العلاقة الإنسانية بالمرأة. تبدو العلاقة «ببكر» هي الأكثر قدسية. لكنّها وهي تحضر بهذه القوّة، لا تقصي الأطياف الغائبة للعلاقات الإنسانية الجميلة المحكومة بمسؤولية الصراحة...

***

أمّا إذا وصلنا إلى الأماكن التي تتحرّك فيها أحداث حياة صاحب السيرة، فإنّنا أمام صورة حيّة غنيّة لأكثر من مكان: القرية – عين غزال، حيفا، عكا، الطريق إلى عكا ومنها، صفد، القاهرة وعصر الثقافة الحقيقي فيها، الخرطوم، بيروت، وأخيراً عمّان.

وفي الوقت الذي يصل فيه نصيب أحداث ما قبل عام ١٩٦٠ إلى ٢٢٢ صفحة من هذه السيرة، فإنّ فترة بيروت وهي الأغنى والممتدة دون انقطاع ٢٣ عاماً لم تنل سوى ٣٤ صفحة. ولعلّ مفهوم «الصراحة» هنا هو الذي أدّى إلى تقليص الحديث عن هذه السنوات، لأنّ الاقتراب من تفاصيلها هو الجزء الأساس من نتيجة مفهوم الصراحة التي توصل إليها صاحب السيرة. فهي فترة حيّة، متواصلة، ساخنة بحضور شخوصها، وهي فترة التشكّل الكبرى التي قدّمت لنا إحسان عبّاس الذي نعرفه.

وإذا كان الوفاء المجروح بحتمية صمته قد فرض ذلك الاقصاء في كتابة تاريخ حقبة بيروت، فإنّ معاناة صاحب السيرة من قلّة الوفاء قد ضيّقت حيّز الكتابة عن حقبة عمان (٨ صفحات من بينها ٤ صفحات لمريم)، بحيث تحول الفصل الأخير إلى وفاء من قبَله لهذه المدينة يلجم الكتابة فيمنعها من أن تفيض بمراراتها. وهكذا يكتفي صاحب السيرة في مقدّمة هذا الفصل بالقول «كدت أن أجعل عنوان هذا الفصل «السنوات العجاف لولا ....». لكن «لولا» هذه، وما تلاها من مبرّرات، لم تسمح له أن يطلق هذا الوصف على سنوات عمان، لكنّها لم تنف هذه الصفة عن هذه الحقبة ولم تمنحها صفة أخرى. فما يقوله الصمت لا يقوله الكلام.

ولعلّ الإحجام عن الخوض في كثير من التفاصيل التي عايشها هذا الراعي الكبير، على امتداد سيرته بشكل عام، قد خلّف كثيراً من الأسئلة التي تحمل نصف إجاباتها... فكأنّ في الحذف هنا إضافة. وإن كنّا نتمنّى في حالة كهذه، أن لا نعذّب بالحذف.

***

يقول إحسان عبّاس «وإذا كان هناك من عيب في الإقدام على كتابة مثل هذه السيرة فذلك هو أنّها تأخّرت في الزمن، وكان من الحقّ أن أكتبها قبل حلول الشيخوخة وامتلاء النفس بألوان المرارة».

ويتحدث عن الطفل الذي كانه إحسان عباس، وهو يقف فوق مزبلة يراقب العالم: «لم يكن يفهم الرموز في ذلك العمر، ولو كان يفهمها لما فاته أن يرى أن درب الحياة التي يسلكها ويسلكها الناس تفضي بهم إلى مزبلة».

أوليست هذه غربة الرجل الكبير في عالم صغير؟

لكن فيض الأسى الذي يغمر **غربة الراعي** لا يحجب عن أعيننا صورته حين ولد، وكيف انتشرت إشاعة في القرية بين النّاس مفادها أنّ المولود مبارك.

هذه الإشاعة انطلقت دون أن يعرف أحد مصدرها، وراحت «ترعى» صحّارتي البندورة فوق ذلك البغل الشديد الحران، الذي يسوقه والد المولود، في طريقه إلى حيفا، فتتناثر الحبّات، فيجمعها معفّرة بالتراب، لكنّه أخيراً يبيعها بثمن غال قبل الآخرين. وتأكّدت هذه الإشاعة بحادثة طيبة أخرى، حين اشترى ابنُ خاله ورقة يانصيب باسم المولود، فكسبت ثلاثة جنيهات كاملة. هذه الإشاعة أصحبتْ جزءاً حقيقياً من سيرة هذا الرّاعي الكبير، لا لشيء إلاّ لأنّ في البركة معنى العطاء في أجمل صوره من منظورنا الشعبي: العطاء المقرون بالسموّ، والارتفاع عمّا هو أرضي، ولأنّ المبارك يعطي دون أن يأخذ دائماً، لكنّ ذلك كلّه لا يدفع الأسى عن القلب.

تبدو **سيرة الراعي** في كلّ محطّاتها، هكذا. لكأنّه حيثما مرّ، ترك الخضرة آثاراً لخطاه، ولم يفكّر لحظة أن يتوقّف ليرتاح من ذلك الامتداد الموحش المترامي أمامه. كما أنّه لم يفكّر بالعودة، ولم يكلّ وهو يشدّ تلك الإشاعة الطيّبة من غيبها ليحوّلها إلى منهاج عمل واقعي من دم وحلم وإصرار فذّ على الوقوف إلى جانب كلّ ما هو حرّ وجميل ومبدع في حياتنا الثقافية العربية ورعايته، وفي حياة أولئك المحظوظين الذين أسعدهم الزمان بمعرفته عن قرب.

ولأنّ **سيرة الراعي** هي سيرة إنسان بالغ الشفافية، وتوأم للمعرفة في صعودها إلى أنبل درجات الحق – العلم... ولأنّها سيرة عطاء، فإنّ لها الحقّ كلّه في أن تعود إلى ما تريد، وتتأمّل الرحلة – الغربة، ويعبرها هذا الأسى كعتاب للروح وهي تخذل روحها.

كلّ ما هو فرح في **غربة الراعي** قد حاكه لنا إحسان عبّاس بيدين ماهرتين وقلب كبير. أمّا الأسى البشري فهو قائم أبداً في نقطة التقاء الجسد بالأرض، ويزداد كلّما أدرك صاحب الجسد قيمة التحليق.

عمان

قصة قصيرة قصة قصيرة قصة قصيرة قصة قصيرة قصة قصيرة قصة قصيرة قصة قصيرة قصة قصيرة قصة قصيرة

هذيان القرى المتوحشة

عروبة المدلل

عصا أولى...

لأنّني ولدتُ يوماً في أرض مالحة.. صبغتني بسحنتها، وأثقلت أساريري بحزن عميق، وظلال متوحشة. في جوفي قلب آخر ينبض شهوره الأولى، صراع التكون.. امتصاص قوة العمر.. مرّةً رأيته يخرج من بطن أمّي.. شعرتُ بقذارته، كان مدمّىً يبعث على الغثيان... اللعبة: قبل قليل كنت داخلها.. خرجتُ وحيدةً، محمولة على التأمّل والصمت، لتنساب تلك القرى المتوحّشة البعيدة بهذياناتها نحو ذاكرتي...

عصا أولى: عند الوقوف قبالة وجه جارنا الشرس الحقير الذي أنزل سرواله، ووقف يتبول.. عصا أخرى: ملأتُ قهوة أبي المسائية.. قدمتها له.. فانسكبت فوق قميصه الأبيض.. عصا سادسة: وشّمتُ حرفاً لاسم من أحببت في أعلى يدي، وارتديتُ ملابسي بأكمام طويلة. لكنّه رآهُ.. حين نبضتْ روحه الأولى في بطني كنت «أتوحّم» وَحَماً غريباً... أحب كل الأشياء.. الأكلات.. الأمسيات وأكره وجه أبي صباحاً.. حين يتوضّأ للصلاة، وتتقاطر حبّات الماء من جبينه الفضّي.. حبّات من الماء: .. أشعرها آسنة...

العصا خلفي الآن.. العصا أمامي.. العصا بجانبي الأيمن.. الأيسر، تحتويني جحافل من العصا.. سحقاً لا تضربني!! إنها مائلة... أبي.. آلاف الآباء لي آلاف العصا تحاصرني بعيونها القطنية.. ريح عاصفة تحمل قلبي من خلف القضبان القصبية.. هل ولدتُ بلحمٍ حرّ؟. قلت إنّي من أرض مالحة وأمي كانت طيبة، هذا كل ما يمكنني قوله الآن.. أبي: «لا تخرجي بدون أحجبتك العشرة..» سبق وضربني ملياً.. وحين ينتهي من احتفاله هذا يقول: «التّربية تبدأ منذ نعومة الأظافر..».

أُطبطب على صدر أختي الصغيرة الذي احمرّ من الضرب.. وحيدةً تقطعُ مسافات التحدّي المرّ.. يصرخ للمرّة الأخيرة: «العاهرة فضحتنا!! لو علمت أنّها ستهربْ.. لقتلتها..».

عصا أخيرة: في ذهني صورة أخرى للفضيحة تتشكّلُ حرّةً.. هكذا أخبرتني حين عادت بعد عشرين عاماً. حين هزل أبي. وأصبح شيخاً، وحيداً لا يطلب سوى الرحمة والجلوس معه في أمسيات خريفه الأخير..

الناصرية (العراق)